نظرية المعرفة عند الإمام أبي الحسن الأشعري (رحمهُ الله تعالى)

The Theory of Knowledge According to Imam Abu Al-Hasan Al-Ash'ari

م. د. سمير هاشم خضير عباس العبيدي
إختصاص العقيدة والفلسفة الإسلامية
التدريسي في كلية الإمام الأعظم - الجامعة
قسم الدعوة الخطابة والفكر - بغداد
Dr. Samir Hashim Khudhair Abbas Al Obaidy
Specializing in Islamic Creed and Philosophy
Lecturer at Imam Al-Azam University College
Department of Dawah, Rhetoric and Thought - Baghdad

الملخص

إنَّ نظرية المعرفة هي النظرية الناقدة لذات العلم من حيث الآلة والوسيلة والمنهج. إنَّ نظرية المعرفة تمثل المقياس العلمي لمراحل النضج الفكري الإنساني من حيث الطبيعة والمصدر والإمكان، إنَّ نظرية المعرفة تجيب على التساؤلات التالية: ماهي المعرفة؟ وماذا نعرف؟ وكيف نعرف؟ وما هي وسائل المعرفة؟ وما هي طبيعة المعرفة؟ وهل العقل صالح للمعرفة؟ وما هي حدود العقل الإنساني في المعرفة؟ وهل باستطاعتنا معرفة كل شيء؟ ومدى يقينية المعرفة؟ أم لا وجود ليقينيتها وندخل في عالم الشك؟ وهل هناك شك منهجي مفيد في الوصول إلى المعرفة أوْ لا؟

ومن هنا تتضح مشكلة البحث وهي هل كانت للمسلمين نظرية واضحة في المعرفة؟ وهل تطرق علماءُ المسلمين في كتبهم إلى نظرية المعرفة؟

إن الدراسة المقدمة ستوضح مدى عمق المسلمين في التفكير الفلسفي ولا سيما في نظرية المعرفة، وقد اخترنا في دراستنا هذه علما من أعلام المدارس الكلامية وهو الإمام أبو الحسن الأشعري رائد المدرسة الأشعرية في علم الكلام.

إنَّ عمق التفكير الفلسفي للإمام الأشعري في نظرية المعرفة مكنته من صياغة منهج جديد للفهم ثم التأصيل ثم الجدل والحجاج، مما جعله علامة فارقة في زمنه ومتميزا في منهجه عمن سواه.

أبدع الإمام الأشعري في نظرية المعرفة من خلال فكره البشري المدعوم من الوحي المقدس، فاجتمع النوران عنده، فأنتجا معرفة إسلامية جديدة.

إنَّ النضوج المعرفي في نظرية المعرفة عند الإمام الأشعري مكنته من مقارعة الفرق الفلسفية والكلامية الأخرى كالمعتزلة والجهمية والفلاسفة وغيرهم بحجة العقل وبرهان النقل.

* * *

Abstract:

The theory of knowledge is the theory that criticizes the same science in terms of the machine, the approach, and the method. The theory of knowledge represents the scientific standard for the stages of human intellectual maturity in terms of nature, source and possibility. The theory of knowledge answers the following questions: What is knowledge? And what do we know? The theory of knowledge is the theory that criticizes the same science in terms of the machine, the approach, and the method. The theory of knowledge represents the scientific standard for the stages of human intellectual maturity in terms of nature, source and possibility. The theory of knowledge answers the following questions: What is knowledge? And what do we know? How do we know? What are the means of knowledge? What is the nature of knowledge? Is the mind valid for knowledge? What are the limits of the human mind in knowledge? Can we know everything? How certain is the knowledge? Or does it not exist for certainty and enter the world of doubt? Is there a useful methodological doubt in accessing knowledge or not?

Hence, the research problem becomes clear, which is, did the Muslims have a clear theory of knowledge? Did Muslim scholars touch on the theory of knowledge in their books?

The presented study will show the extent of the depth of Muslims in philosophical thinking, especially in epistemology, and we have chosen in our study a scholar from the theological schools of thought, Imam Abu al-Hasan al-Ash'ari, the pioneer of the Ash'ari school in theology.

The depth of Imam Al-Ash'ari's philosophical thinking in epistemology enabled him to formulate a new approach to understanding, rooting, argument and argumentation, which made him a milestone in his time and distinguished in his approach from others.

Imam Al-Ashari innovated in the theory of knowledge through his human thought supported by the Holy Revelation, so the two lights met with him, and they produced a new Islamic knowledge.

The cognitive maturity of Imam Al-Ash'ari's epistemology enabled him to contend with other philosophical and theological sects such as the Mu'tazila, the Jahmiyyah, the philosophers and others under the pretext of reason and proof of transmission.

المقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه .

وبعد؛ فإنَّ تاريخ الفلسفة هو تاريخُ الفكر البشري في نشأته ونموه وتطوره، ومعرفة العوامل التي أثرت فيه، إنَّ البحث عن المعرفة الحقيقية وعن ماهية الصدق هو حاجة إنسانية ملحة؛ لذا بذلوا مهجة حياتهم لمعرفتها.

إنَّ نظرية المعرفة هي النظرية الناقدة لذات العلم من حيث الآلة والطريق والوسيلة والمنهج. إنَّ نظرية المعرفة تجيب على التساؤلات التالية: ماهي المعرفة؟ وماذا نعرف؟ وكيف نعرف؟ وما هي وسائل المعرفة؟ وما هي طبيعة المعرفة؟ وهل العقل صالح للمعرفة؟ وما هي حدود العقل الإنساني في المعرفة؟ وهل باستطاعتنا معرفة كل شيء؟ ومدى يقينية المعرفة؟ أم لا وجود ليقينيتها وندخل في عالم الشك؟ وهل هناك شك منهجي مفيد في الوصول إلى المعرفة أوْ لا؟

إنَّ دراسة نظرية المعرفة لأي مرحلة زمنية أو شعب من الشعوب أو عالِم من العلماء تمثل المقياس الحقيقي لعمقهم العلمي ولمنهجيتهم العلمية العامة.

ومن هنا تتضح مشكلة البحث وهو نكران الغرب لفضل المسلمين العلمي بصورة عامة ومنها نظرية المعرفة، وهل كانت للمسلمين نظرية واضحة في المعرفة؟ وهل تطرق علماءُ المسلمين في كتبهم إلى نظرية المعرفة؟

لذا شمرت ساعد الجد والتنقيب بحثا وتنقيبا في تراث متكلمي أهل السنة والجماعة ولا سيما ناصر السنة الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله؛ لنتحقق من تراثه العلمي ومدى نضوج نظرية المعرفة ووضوحها عنده.

وقد سبقني بدراسة لنظرية المعرفة الأستاذ زكي نجيب محمود الذي بيَّن فيها طبيعة المعرفة وإمكانها ومصادرها بأسلوب بسيط يتلاءم مع الطلاب المبتدئين. وكذلك سبقني بدراسة جادة لنظرية المعرفة بين القرآن العظيم والفلسفة الدكتور راجح الكردي الأردني الذي بيَّن من خلالها أصالة المعرفة الإسلامية وتميزها عما سواها، بينما نجد الباحث محمود زيدان في كتابه نظرية المعرفة يستخف بالمتكلمين والمتصوفة المسلمين ويدعي أن مبحث المعرفة غير متكامل عند علماء المسلمين.

وهناك دراسات أخرى. ودراستي تختلف عما سبق من الدراسات كونها تختص بالإمام الأشعري وتناوله لنظرية المعرفة من خلال كتبه.

واستخدمت في هذا البحث المنهج الوصفي والتاريخي والتحليلي، حيث وصفت نظرية المعرفة عند الغربيين، ثم ترجمت ترجمة عامة للإمام الأشعري، ثم حللت نصوص الإمام الأشعري بما يتلاءم مع مباحث نظرية المعرفة من حيث إمكانها وطبيعتها ومصادرها.

ومن المشاكل الحقيقية التي واجهتني هو فقدان أغلب كتب الإمام الأشعري التي تربو عن (٢٥٠ مؤلف كما سنوضح ذلك لاحقا) ولا سيما التي تحمل عنوان المعرفة والإدراك والعلم، التي هي مظنة بحثنا هذا، ولم أجد في كتبه المطبوعة على قلتها ما يشفي الغليل وهي (مقالات الإسلامين، واللمع، ورسالة إلى أهل الثغر، واستحسان الخوض في علم الكلام، والإبانة) حتى وجدت غُنيتي في كتاب (مجرد مقالات الإمام الأشعري) والذي سأعتمد عليه جوهريا في بحثي هذا، حيث أفرد تلميذ تلميذه الإمام الألمعي الخبير في علم الكلام ابن فورك أقوال الإمام الأشعري وأراءه من تسعين كتاب، فانصب عملي عليه قراءة وتحليلا لمفرداته وموضوعاته.

وقد تناولت الموضوع في مبحثين، الأول لنظرية المعرفة في الفلسفة الغربية وفيه أربعة مطالب، مبينا فيها لطبيعتها ومصادرها وإمكانها. أما المبحث الثاني فخصصته لنظرية المعرفة عند الإمام الأشعري، وفيه ثلاثة مطالب، تحدثت فيها عن نظرية المعرفة الإسلامية، وذكرت ترجمة موجزة للإمام الأشعري، ثم ذكرت نظرية المعرفة عنده. وخلصت إلى بعض النتائج، منها أصالة فكر الإمام الأشعري، ونضوج نظرية المعرفة عنده مما أهله أن يتزعم المدرسة الكلامية السُنية.

اللهَ أسألُ العفو والمغفرة من الزلل، وأن يكون بحثي علميا بعيدا عن الشطط، وأن يجعلها صدقة جارية بعد الرحيل إليه، اللهم آمين.

* * *

المبحث الأول

نظرية المعرفة في الفلسفة الغربية.

- **المطلب الأول: المدخل لنظرية المعرفة الغربية.**

هي فرع من الفلسفة، تدرس طبيعة المعرفة وأساسها ومداها، هدفها تحديد طبيعة المعرفة وأساسها ومحلها، كما تستكشف الطرائق المختلفة المؤدية إلى المعرفة وجوهر الحقيقة.

إن جوهر الحقيقة قد حير الناس منذ قدم الزمان، لأهم اختلفوا في الرأي حول أي الأفكار تطابق الحقيقة، لقد حاول الفلاسفة أن يحددوا معايير الحكم من أجل التمييز بين الصواب والخطأ، ولكنهم اختلفوا حول معنى الحقيقة، فصدرت عدة نظريات تحاول الإجابة على هذا السؤال ومنها:

١. نظرية التطابق: الفكرة الحقيقية هي المطابقة للواقع.

٢. نظرية الذرائع: الفكرة الحقيقية هي التي أثرت في حل المشكلة أو قدمت لها حلاً.

٣. نظرية الترابط: الفكرة الحقيقية هي بمقدار ترابطها وتماسكها أو بمقدار توافقها مع أفكار أخرى يؤمن بها الإنسان.

٤. نظرية الشك: الفكرة الحقيقية من المستحيل الوصول إليها أو معرفتها .[١]

يمكن أن نعرف نظرية المعرفة بأنها: «العلم الذي يبحث فيه عن ماهية المعرفة ومبادئها وأصولها وشروطها وحدودها»[٢]. أو «العلم الباحث حول معارف الإنسان وأنواعها وتحديد صحتها وسقمها، وبيان المعيار في ذلك».[٣]

كانت الفلسفة اليونانية القديمة تتجه نحو العالم الخارجي مستغرقة فيه، أكثر من اتجاهها إلى العالم الداخلي الإنساني، الذي هو مصدر الأخلاق وموطنها، والعقل الذي هو مصدر المعرفة ومستقرها فلم يعن بهما بالذات. فظهرت السفسطة[٤] وهي فلسفة الشك في أثينا في حدود (٤٢٩ ق.م) بعد انتصار اليونان على

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة، ط٢، ١٩٩٩م، باب فلسفة، انظر (١٧/ ٤٥٨).

(٢) تمهيد الفلسفة، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٦م ص١١٠.

(٣) المدخل لدراسة نظرية المعرفة، غلام رضا الفياض، تعريب: أيوب الفاضلي، مركز السراج، ط١، ٢٠١٣م، ص٢١.

(٤) السفسطة قديما هي الشطارة والمهارة والحذق، وفي زمن سقراط وأفلاطون وأرسطو استخدمت بالمعنى المذموم، وهي المغالطة أي استخدام حجة صالحة في الظاهر ولكنها غير صحيحة في الحقيقة تستخدم لتوهيم الآخرين، وهي فلسفة

الفرس، حيث تشكك طبقة من المعلمين في العقل ومبادئ الأخلاق، ومن هذا الاسم لقبوا بالسوفسطائين، فقد كانوا مجادلين ومغالطين وكانوا متجرين في العلم، حيث اتقنوا الجدل وحذقوه وتفاخروا بتأييد القول ونقيضه على السواء، وعرضوا الحجج الخلابة في مختلف المسائل فكانوا أهل خطابة، فعبثوا بالحقائق والمذاهب الفلسفية والأخلاقية والدينية، واستمالوا عامة الجمهور وكسبوا منهم المال الوفير.[١]

إنَّ هذه الفوضى الفلسفية كانت لها ثمرة وهي بزوغ الفلسفة الحسية والعقلية وظهر سقراط[٢] وأفلاطون[٣] ثم أرسطو[٤] محاربين لهم. ومشتغلين في تأسيس العلوم لصدهم، فكانت النتيجة وضع علم الجدل والمنطق والفلسفة الأخلاقية والسياسية وغيرها.

إن هذا السرد في الصراع مع فلسفة الشك والسفسطة هو اللبنات الأولى لنظرية المعرفة والحقيقة والذات هي هي وجوهر الأشياء.

ونطوي التاريخ الإنساني الفلسفي القديم لنرى أن فلسفة العصور الوسطى قد انسبكت مع الاتجاه الديني والنظام الإقطاعي، فقد كان الفلاسفة في العادة من الرهبان، وبعضهم من المستقلين ولكنهم كانوا يفكرون بوصفهم رجال كنيسة.[٥]

لم تحظ الاهتمامات الدنيوية بالعصر الوسيط بوجه عام بقدر طفيف من المعرفة، وكان الحوار الدائر يهتم بالفلسفة المجردة بتعريف الألفاظ المجردة والاستدلال عليها ونقلها وتدوينها بلغة دقيقة في استخدام المصطلحات.

متناقضة لأنها تستلزم المستحيل. انظر: موسوعة لالاند الفلسفية، أندرية لالاند، تعريب: خليل أحمد، منشورات: عويدات، بيروت - فرنسا، ط٢، ٢٠٠١م، ص ١٣١٥.

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٣٦م. انظر: ص ١١، ٥٧.

(٢) سقراط: فيلسوف يوناني من أثينا (٤٧٠ - ٣٩٩ق.م) عرفناه من خلال تلامذته، فهو لم يكتب شيئا، ولاسيما من خلال المحاورات السقراطية لأفلاطون، أسهم بالفلسفة والمنطق والمناظرات والتربية والأخلاق، وكان يتواجد مع العامة حيث وجدوا. انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، دار: الطليعة، بيروت، ط٣، ص ٣٦٥.

(٣) أفلاطون: أعظم فلاسفة اليونان (٤٢٧- ٣٤٧ق.م) تتلمذ على سقراط وفتح أكاديمية فلسفية هي أول معهد للتعليم العالي تجري فيها مباحثات علمية، يعتبر من المؤسسين للفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة والرياضيات وغيرها. جميع مؤلفاته ذات طابع حواري، منها: الجمهورية، السياسي، القوانين. انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، ص ٧١.

(٤) أرسطو: فيلسوف يوناني (٣٨٤- ٣٢٢ق.م) تلميذ أكادمية أفلاطون التي قضى فيها عشرين سنة، من أعظم نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني، فهو أستاذ الفكر النقدي والنظامي الذي هو أساس العلم بالذات، مؤسس المنطق والبارع في الطبيعيات والأخلاق والسياسة والميتافيزيقيا، انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، ص٥٢.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ترجمة: محمود سيد أحمد. دار: التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠م . ص٢٥.

ومن جهة أخرى كان المناخ معارضا للملاحظة، وكان ما يكتب من فلسفة باللغة اللاتينية وهي لغة غير محلية، وكان ما يكتب بعيدا عن حياة الناس.[١]

لننتقل إلى الفلسفة الحديثة ونمر بعصر النهضة الأول العصر الإنساني (من ١٤٥٣ إلى ١٦٠٠م)[٢] ثم بالعصر الثاني الذي يؤرخ له (من ١٦٠٠ إلى ١٦٩٠م) الذي برز فيه بيكون وهوبز في انجلترا، وديكارت في فرنسا واسبينوزا في هولندا وليبنتس في ألمانيا.

نعم هؤلاء وغيرهم تميزوا بفترة الوعي المنهجي وكانوا علماء طبيعيين وساهموا في تطوير الرياضيات والعلوم الطبيعية، وكانوا على ثقة من نجاح الفلسفة العظيمة في الكشف عن طبيعة الواقع. وكانوا مؤثرين على كثيرين من فلاسفة القرن العشرين.

وصلنا إلى عصر التنوير الذي بدأ من كتاب (مقال في العقل الإنساني) صدر سنة ١٦٩٠م للفيلسوف جون لوك[٣]، الذي يعتبر أول كتاب خاص في نظرية المعرفة، التي هي مدار بحثنا، بمعنى أن ظهور نظرية المعرفة كعِلم مستقل يعتبر محطة مهمة من محطات تطور الفكر الإنساني.

وجه لوك حياته الفكرية بشكل عام للإجابة عن سؤالين: كيف يمكن للإنسان معرفة أي شيء؟ وما شكل حياة الإنسان التي ينبغي أن يسعى الإنسان إلى عيشها؟ [٤].

ولنقتبس الإضاءات الفكرية المهمة لجون لوك في كتابه (مقال في الفهم الإنساني)، لأن أفكار هذا الفيلسوف في كتابه تخدمنا في فهم أعمق لنظرية المعرفة:

١. قال لوك: كان فيما مضى مدرستان فكريتان، الأولى: هي المدرسة العقلية تنص على وجود أفكار أولية (قَبْلية) في عقولنا قبل وجود التجربة. والثانية: هي المدرسة الحسية التي تنص على عدم وجود أفكار قبلية في العقل، وإنما هي بعدية أي بعد التجربة، ولا تنكر المدرستان أهمية الأخرى، ولكنهم اختلفوا في التسلسل المعرفي، فالحسيون يبدؤون من التجربة ليصلوا إلى العقل والعقلانيون يبدؤون من العقل ليصلوا

---

(١) المصدر السابق، وليم رايت، ص٢٧.

(٢) يُعلم أن سنة ١٤٥٣م هي سنة فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح العثماني. الباحث.

(٣) جون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤م) فيلسوف تجريبي عقلاني انكليزي، من المؤلهين الطبيعيين، مع احتفاظه باحترام للدين، كانت أفكاره تعد ثورية بالنسبة للأفكار التقليدية آنذاك في الدين والسياسة، أدخل الليبرالية في التربية والسياسة، أهم مؤلفاته: محاولة في الفهم البشري. انظر: الطرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٥٩٨.

(٤) جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، ترجمة: فايقة جرجيس حنا، مراجعة: هبة عبد المولى، مؤسسة هنداوي، مصر، ط١، ٢٠١٦م، ص٧٧.

إلى التجربة.[١]

٢. قال لوك: يجب أن نضع المعرفة لوحدها تحت طاولة البحث لننظر فيها وفي شروطها وطبيعتها، لا بد في البدء من تأسيس أسس صحيحة.

٣. ناقش لوك قضية المبادئ الفطرية القبلية، هل فعلا هناك قضايا فطرية قبلية؟ وهي موجودة في عقول جميع الناس ابتداء؟ هل قاعدة (الشيء هو هو، والشيء لا يناقض ذاته. أو الكل أكبر من الجزء) هي أفكار فطرية قبلية؟ لا يعتقد لوك ذلك، لأن احتمال وجود ملكة الذهن المتميزة وهي الحدس قد قامت بذلك. والموافقة الكلية لا تدل على القول بالقبلية. لذلك هاجم لوك نظرية الأفكار الفطرية ورفضها حتى يستطيع عرض نظريته الخاصة في المعرفة.

٤. قال لوك: هل الأخلاق هي قوالب قبلية؟ وهل الميل المشترك بين الناس لها كحب الصدق وكراهية الكذب دليل القبلية؟ قال: لا. لأن العقل والتعليم والبيئة والأصدقاء والعرف هي من سيوجدها في دواخلنا، وإلا فلماذا نرى بعض الأمم تخرق هذه المبادئ؟

٥. قال لوك: ما هي عناصر المعرفة إذا كانت أذهاننا كالصفحة البيضاء لم يطبع عليها شيء أو خزانة فارغة من الأدراج؟ ومن أين جاءت كل الذخيرة في أفكارنا؟ قال: كل معرفة تأتي من التجربة. وإن مصدر المعرفة هو التجربة الخارجية المحسوسة مع النشاط الذهني الداخلي نتزود بالإدراك والتفكير، وهما ركنا النشاط العقلي. فهناك إذن مصدران أساسيان للمعرفة يشكلان خامات النشاط العقلي، هما: الإحساس الخارجي، والإحساس الداخلي. فتنقل إلينا الحواس الخارجية المعلومات فيتشكل من خلالها في الذهن الإدراكات وهذه الإدراكات تمثل معظم الأفكار التي لدينا. أما الإحساس الداخلي فهو نشاط يمارسه الذهن حول الأفكار التي وردت إلينا من طريق الحواس. إذن الإحساس والإدراك هما المصدران الوحيدان للمعرفة عند لوك.

٦. تعريف المعرفة: هي إدراك اتفاق أفكارنا واختلافها. وهذا الاتفاق أو الاختلاف على أربعة أنواع، الأول: الهوية أو التباين. الثاني: التمييز المباشر للعلاقات بين الأفكار. الثالث: ملاحظة معية الأفكار أو عدم معيتها في نفس الموضوع. الرابع: معرفة الوجود الحقيقي، معرفة ما يقابل الفكرة في العالم الخارجي.

٧. درجات المعرفة: هناك ثلاث درجات، وهي: المعرفة الحدْسية والبرهانية والحسية. وأكثرها يقينا هي الحدسية. والحدس: هو معرفة العلاقة بين فكرتين مباشرة بدون توسط فكرة أخرى.[٢]

---

(١) مقال في العقل البشري، جون لوك، ص ٥٠.

(٢) جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، ص٨٠.

٨. الدين: استثنى لوك وجودَ الله من قاعدته (لا توجد معرفة حقيقية إلا عن طريق الإحساس) ويعتقد أن معرفة وجود الله تندرج تحت المعرفة البرهانية المطلقة وذلك بتركيب قضايا عديدة كل قضية عُرفت عن طريق الحدْس فإذا تجمعت فإنها تؤلف برهانا.

وهنا ينتقد وليم رايت فلسفة لوك في البرهنة الحدسية على وجود الله، لأنها عادت ونقضت أصل فكرته. ويعود رايت فيمدح لوك فيقول: ولكنه كفيلسوف برهن على وجود الله لأنه يصعب تصور الحياة والذهن على أنهما نشآ من مادة ميتة أو غير واعية أو من طاقة أكثر من النظر إلى الحياة والعقل على أنهما نتاجان لعقل خالق يعمل في الطبيعة.(١)

٩. الوحي: قال لوك إن الوحي يقدم معرفة جديدة وهي موجودة في الكتاب المقدس وهي معرفة بعيدة، وهي لا تناقض العقل كما وضح ذلك في كتابه (معقولية المسيحية) ويمكن امتحان هذه المعرفة عن طريق المعجزات، والمعجزات نؤمن بها وإن كانت فوق العقل ولكنها ليست مِن الخُلف المنطقي ولذلك فهي غير متناقضة.

تحدث لوك عن الأخلاق والفلسفة السياسية وغيرها... هذه فلسفته باختصار.(٢)

من هذا نفهم أهمية النظريات المعرفية كونها تساعد على إدراك الحقائق وفهم للواقع أكثر مما مضى، بل تساعد على صياغة منهج معرفي وفلسفي جديد.

قال وليم رايت: إن صياغة منهج جديد للبحث الفلسفي هو الإنجاز الأعظم لبداية أية مرحلة فلسفية، فقد رأينا إن أحد العيوب الخطيرة في المرحلة الإنسانية كان الافتقار إلى منهج مناسب.

إن وجود منهج فكري وفلسفي له فوائد، منها: صيانة الفيلسوف من الشط في التفكير، فيقوم بافتراض فروض ليس لها ما يبررها. والمنهج يوفر ألية النقد. ومن شروط عمل المنهج الفكري والفلسفي: أن يكون منهجا منطقيا، وأن يكون منتجا.(٣)

- **المطلب الثاني: إمكانية المعرفة.**

يتفق العقلاء على إمكانية المعرفة، وإمكانية الوصول إلى اليقين وأن للأشياء حقائق ثابتة نستطيع أن نتوصل إليها، فلا حدود لقدرة الإنسان على الوصول إلى المعارف اليقينية، وهو يسمى بمذهب اليقين .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم رايت، ص ١٥٣.

(٢) مقالة في العقل البشري، جون لوك. كذا: جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، ص ٨٧ وما بعدها. وكذا: بحث محمد فتحي الشنيطي في الفهم الإنساني لجون لوك، انظر: سلسلة تراث الإنسانية، دار: الرشاد، ص ٤٣٥ وما بعدها. وكذا: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص ١٤١.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة: وليم رايت، ص٦٣.

وينقسم مذهب اليقين إلى:

١- المذهب العقلي: العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، فالمعرفة عقلية صِرفة ولا دخل للخبرة والحواس فيها، وللعقل المقدرة أن يصل إلى المعرفة الكاملة.

٢- المذهب التجريبي الحسي: التجربة الحسية هي المصدر الوحيد للمعرفة، ويمكن الوصول للمعرفة الكاملة إذا كانت الظروف مهيأة أمام الحواس.[١]

وكلا المذهبين (العقلي والحسي) هما مذهب الاعتقاديين الذين يقولون بإمكان المعرفة، وأن هذه المعرفة ليس لها حدود، ويجب عليهم أن يبدؤوا من مناقشة المسلمات والفروض التي يبدؤون منها.[٢]

وشذ عن هذا الأصل مذهب الشك، الذي يقول: المعرفة بمعنى العلم بالشيء كما هو في حقيقته الخارجية المستقلة عن ذات الشخص العارف فمستحيلة.[٣]

إذ ليس للجهل الإنساني بحقائق العالم حد يقف عنده إذ لا وسيلة أمام الإنسان في وسعه التماسها ليعرف شيئا خارج نفسه.

وهو مذهب خطير جداً لأنه هادم للحكمة والحقيقة والمعرفة وينكر حق العقل في إصدار أي حكم، لأنه يقدم الشك ويرفض التعليل، لأنه لو علل لِما يقول فهذا يعني أنه يقول بشيء ثابت أو له حقيقة ما، وهذا تناقض. والشاك رجل مغلوب على أمره فقد الإيمان بالحق والخير وانعزل في نفسه لا يوجب ولا ينفي، بل يقول: لا أدري.[٤]

ويقسم مذهب الشك إلى قسمين:

أولاً: الشك الكلي - الذي ينكر كل الحقائق، ويقول: لا وجود أصلاً لأي حقيقة، كما ينكر المعرفة بأوسع معانيها.

ثانياً: الشك الجزئي - الذي يشك في التجارب، فهو مثلاً يشك في الأسس أو يشك في الاستقراء أو يشك في النتائج.

فالشك مذهب مذموم، إلا من استخدمه كوسيلة للمحاجَّة مع الخصوم أو كوسيلة لتمحيص المسلمات السابقة لتقرير صحتها أو رفضها، وهذا ما يسمى بالشك المنهجي، فهو مذهب للوصول إلى الحقائق، قال الغزالي في نهاية كتابه ميزان العمل: «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ينظر: ص ٣١١.
(٢) نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، ص ٦٥.
(٣) نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، ص ٦٨.
(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، ينظر: ص ٣١١- ٣١٩.

الموروث، لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق. فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال. نعوذ بالله من ذلك» [١]

أو وسيلة للحصول على معرفة أكثر وضوحاً، قال ديكارت: «للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة في حياته أن يضع جميع الأشياء موضع الشك بقدر الإمكان»[٢].

إذا هناك فرق بين الفيلسوف الشاك والفيلسوف الذي يستخدم منهج الشك، فبينما الأول: يشك في إمكان حصول الإنسان على المعرفة إطلاقا. ترى الثاني: يؤمن بإمكان المعرفة، وغاية ما في الأمر أن الوصول إلى المعرفة اليقينية يحتاج إلى حذر وحرص.[٣]

المطلب الثالث: طبيعة المعرفة.

ما هي حقيقة المعرفة الإنسانية ؟ وما هي الكيفية التي تتصل بها قوى الإنسان المدركة للمدركات ؟ وكيف تتم عملية العلم بالأشياء ؟

هذه أغلب وأهم الأسئلة التي تحاول طبيعة المعرفة الإجابة عليها.

هناك مذهبان متباينان للإجابة على هذه التساؤلات وهي:

أولاً: المذهب الواقعي.

والذي يقر بوجود عالم خارجي مستقل بغض النظر إذا أدركه العقل أم لا، والأمور المدركة في العقل ليست سوى رمز تدل على الخارج، «فعالم الأشياء المادية له وجود مستقل عن كل من وعي الإنسان أو براهينه».[٤]

فما هي علاقة العالَم الخارجي بما هو موجود في الذهن؟ هل هي صورة طبق الأصل؟ أو هي مثله؟ أو هي مستقلة عنه؟ هذا ما نبحث عنه.

وللإجابة على هذا التساؤل في طبيعة المعرفة انقسم العلماء إلى مذاهب:

١. الواقعية الساذجة: وهي التي تقول بأن العالم الخارجي هو الأصل، وأن أفكارنا ومعارفنا هي صورة طبق الأصل له، وقد أشرنا إليه سابقاً بنظرية التطابق. فالإنسان في هذه النظرية كالكاميرا (آلة تصوير) تقوم بالتقاط صور مطابقة للأصل، وهذا المذهب يثق ثقة عمياء بالمدركات الحسية دون نقد وأن الفكر العادي السائد

---

(١) ميزان العمل، الإمام العزالي محمد بن محمد الطوسي، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار: المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٤م. ص ٤٠٩.

(٢) تمهيد الفلسفة، انظر: ص ١٢٠.

(٣) نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، ص ٦٩.

(٤) نقد المذاهب المعاصرة، إبراهيم مصطفى، دار: المعرفة الجامعية، ٢٠٠٨م، ص ٤٢

عند عوام الناس يسلمون له تسليماً مطلقاً، ولهذا يسمى بالساذج.[١]

ولكن هذا المذهب ما أن نسلط عليه العلم والتحقيق نراه سرعان ما ينهار؛ لأن الأفكار العادية الساذجة عن الخارج لا تمثل حقيقة الأشياء في الواقع، مثل أن ترى العين المجردة الشمس والقمر قرصين صغيرين، ولكن العلم يثبت خطأ هذا التصور، وكذا ترى العين المعدوم موجوداً كالسراب.[٢]

٢. الواقعية النقدية: وهي التي تقول: إن الحس يدرك حقائق الأشياء ولكن هذه الحقائق لا بد من إخضاعها للنقد والتمحيص في ضوء قوانين العلوم الطبيعية.[٣] أي أنها لا تسلم للعالم الخارجي عن طريق المدركات الحسية فقط بل تقول لا بد من اختبار نقدي لها، وتعطي العقل دورا كبيرا في النقد والتحليل. لذا قالوا: إن المعرفة ليست إدراك صور مطابقة للشيء الخارجي، بل صورة معدلة بفعل العقل الذي يمكن أن يتجاوز الجزئيات والمحسوسات إلى الكليات.[٤]

٣. الواقعية النقدية الجديدة: قالوا هذه المعرفة تدور حول فهم العلاقة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة ذاته دون تمييز بين العارف والمعروف. ورفضت القول بوجود وسيط بينهما، كما أنها وقفت موقفا عدائيا من الميتافيزيقية. واعتبرت المعرفة واقعة طبيعية خاضعة للوصف والتحليل.

إن الذات المدركة والعقل لهما دور إيجابي في عملية المعرفة، وإن معرفة الإنسان بالموضوعات الخارجية والجزئية وقدرته على تحديدها تمكنه من الوصول إلى فكرتي الوحدة والكلية.[٥] وبالتالي أصبح هذا المذهب أقرب إلى الموضوعية والتحليلية.

ثانياً: المذهب المثالي.

إن الفلسفة المثالية هي اتجاه عام قوامه رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معاني هذا اللفظ، فوجود الأشياء مرهون بقوى الإدراك.[٦]

إذن الفلسفة المثالية ترجع كل وجود إلى الفكر، وإذا انعدمت قوى الإدراك له انعدم.

وبعبارة منطقية: الجزئيات لا قيمة لها بعلم المنطق، والجزئيات لا تفسر نفسها، ووجودها متوقف على وجود الكليات، والكليات لا توجد إلا في الذهن، فالفكر سابق للأشياء. وتنقسم المثالية إلى:

---

(١) تمهيد للفلسفة، ص ١٣٠.

(٢) نقد المذاهب المعاصرة، ص ٤٩. وكذا: تمهيد للفلسفة، زقزوق، ص١٣١.

(٣) تمهيد للفلسفة، زقزوق، ص ١٣١.

(٤) نقد المذاهب المعاصرة، ص ٥٢.

(٥) مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها، ص ٢٣٧. وكذا: نقد المذاهب المعاصرة، ص ٥٢.

(٦) المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، ص ١٦٩.

١. المثالية الموضوعية: وهو مذهب ينظر إلى العنصر العقلي أنه جوهر الأشياء من غير الإشارة إلى ذات مدركة، وهي فلسفة قديمة أفلاطونية ومذهبها أن الأفكار أو المُثل موجودة وجودا هو أسمى من الوجود المحسوس؛ لأنها هي المبادئ النموذجية الأصلية للأشياء، ووجودها وجود مفارق متعالي.[١] وهي ما تسمى بالمثالية الموضوعية. قال أفلاطون: إن العقل هو أساس المعرفة وهو معنى مجرد يدرك ما يماثله من المعقولات، والمُثل من عالم المُثل , أي أن العقل لا يخترع المعرفة وإنما هي قائمة في عالم المثل أصلاً، والعقل يقوم بعملية التذكر، لأنه عندما هبط للعالم السفلي واندمج مع المادة الجسمانية لسبب ما انحجبت عنه المعرفة، لذا فهو يحتاج إلى مجاهدة ورياضة، وبهذا سمي أفلاطون الإلهي.[٢]

٢. المثالية الذاتية: هي مثالية العصر الحديث التي بدأت بديكارت ومذهبه الكوجيتو[٣] (أنا أفكر إذن أنا موجود)، وهذا الوجود مندمج في الأشياء الخارجية.[٤] وهي ما تسمى بالمثالية الذاتية. وأكدها بركلي بقوله: الوجود هو الإدراك. وهي فلسفة لا مادية ولكنها لا تعني إنكار المحسوسات بدليل إنا ندركها، ولا تذهب إلى تحويل الأشياء إلى معان، وإنما تحول المعاني إلى أشياء.[٥]

٣. المثالية النقدية: وهي فلسفة تعتبر العالم الخارجي يتمثل في مجموعة من الظواهر التي تحدد بناءها قوانين عقلنا وهي القوالب العقلية أو المقولات العقلية، وهذه فلسفة كانط[٦] حيث كان يفرق بين ما هو قبلي سابق وبين ما هو بعدي مكتسب بالتجربة.[٧]

والمثالية مذهب يعلي من قيمة المعرفة العقلية، ويقول: إن العالم الخارجي يرجع إلى أفكارنا ووجوده ليس مستقلاً عن العقل.

---

(١) المتعالي: المتسامي ترنسندنت (Transcendant)، وهو مذهب يعبر عن وجود حقائق متعالية، وبنحو خاص عن وجود جواهر أو أشياء بذاتها تكون الظواهر تجسيدا لها. انظر: موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، (١٤٧٢/١).

(٢) المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، ص ٢٣٨.

(٣) الكوجيتو: حجة تستمد من وجود الفكر الراهن حقيقة النفس كجوهر فردي (أنا شيء يفكر). انظر: موسوعة لالاند الفلسفية، ص ١٧٧.

(٤) الفلسفة الحديثة، أمل مبروك، دار: التنوير، بيروت، ٢٠١١م، بيروت، انظر: ص ١٧٠.

(٥) تمهيد للفلسفة، ص ١٣٥.

(٦) كانط: فيلسوف ألماني (١٧٢٤- ٨٠٤م) برع في الفلسفة والطبيعيات، أهم مؤلفاته: المبادئ الأولى في الميتافيزيقيا، المانادولوجيا الطبيعية، نقد العقل الخالص، نقد العقل العملي، نقد الحكم وغيرها.
انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، ص ٥١٣.

(٧) تمهيد للفلسفة، زقزوق، ص ١٣٧.

قال كانط: إن كل الموضوعات لا بد لها من تطابق مع تكوين أذهاننا، حتى يمكن معرفتها، بينما استمر الفلاسفة قبل كانط، بالقول: إن إدراكاتنا تناظر خصائص معينة في العالم الخارجي.[١]

وهذا المذهب نراه دائماً يجمع حسنات ومميزات كل مذهب ويمزج بين الحس والعقل، ورائد هذا المذهب من المتأخرين هو كانط الذي يقول: الأفكار بدون مضمون حسي تعد جوفاء، والحسيات بدون مفاهيم تعد عمياء.[٢]

١- المثالية الموضوعية : وهو مذهب ينظر إلى العنصر العقلي أنه جوهر الأشياء.

- **المطلب الرابع: مصادر المعرفة.**

كلما سُئلنا عن مصادر المعرفة تبرز الإجابة حاملة منابعها الرئيسة وهي: المصدر العقلي والحسي والنقدي والحدْسي والإلهامي.

١- المذهب العقلي: كل معرفة تنبع من العقل فهو أساس المعرفة وهي مستقلة عن الحواس، لأن الحواس تنقل لنا صوراً مشوشة والعقل لا يعتمد عليها، وفي العقل مبادئ أولية قَبلية فطرية يمكن من خلالها معرفة الأشياء، وإن التجربة والحس ليس لهما شأن في هذه المعرفة. وهذا المذهب هو الأسبق تاريخياً في الظهور.

٢- المذهب الحسي التجريبي: الحسيون التجريبيون يقولون كل معرفة تنبع من الحواس؛ لأن النفس عند الولادة كالصفحة البيضاء والمعرفة ليست فطرية قبلية؛ لأن الأطفال والبلهاء لا يملكونها، وهذا هو مذهب جون لوك،[٣] وديفيد هيوم حيث يعتبرون الحواس النافذ المطلة على العالم، والحقيقة هي ما طابقت العالم الخارجي.

إذن الأفكار الفطرية القبلية لا أساس لها، ولا وجود لها عند المذهب الحسي التجريبي، وبما أن النفس عند الولادة كالصفحة البيضاء فإن المعارف تصل إليها عن طريق الخبرة أي الإدراك الحسي. لهذا قال لوك: إذا سألنا سائل عن شخص ما: متى بدأ يفكر؟ فلا بد أن يكون الجواب: «حالما بدأ يحس»[٤]

٣- المذهب النقدي: وهو مذهب وسط بين المذهبين السابقين، وهو مذهب كانط، الذي يقول: المصدر الأول يعطي لنا الموضوع. والمصدر الثاني يتعقل الموضوع.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم رايت ص٢٥٣.

(٢) تمهيد للفلسفة، زقزوق، ص ١٣٧.

(٣) جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، ص٨٩.

(٤) تمهيد للفلسفة، ص١٤٦.

أي أن معرفتنا تنبع من مصدرين: الحس لمعرفة الموضوع، والعقل لفهم الموضوع، فالإدراكات الحسية والمفاهيم العقلية يشكلان عناصر كل معرفتنا.[١]

٤. المذهب الحدْسي: قال دي مالبرانش[٢]: إن المعرفة الحدسية هي أكثر أنواع المعرفة التي نحن على يقين بوجودها... إن الحقيقة الأساسية التي يعرفها الإنسان حدسيا هي حقيقة وجوده فلا يمكن للإنسان أن يشك بوجوده.[٣]

الحدْس هي المعرفة لا عن طريق النظر والاستدلال أو التجربة.

وقال هنري برجسون[٤]: إن المدركات والتصورات لا تبسط تجاربنا الخاصة بل تزيفها، وإننا لا نحصل على المنظور الصحيح إلى الواقع الذي يتغير بلا توقف عن طريق التفكير التأملي، ولكن عن طريق الحدْس.[٥]

قال جون لوك كما مرَّ سابقا في درجات المعرفة: هناك ثلاث درجات، وهي: المعرفة الحدْسية والبرهانية والحسية. وأكثرها يقينا هي الحدسية.

٥. المذهب الإلهامي: تختلف المعرفة الإلهامية عن المعارف السابقة الكسبية حيث إنها تكسب المعرفة مباشرة دون درس أو تعلم، فهو علم بلا واسطة كالضوء من سراج الغيب.

إن وسيلة المعرفة هنا ليست الحواس ولا العقل، بل هي الحدس أو العيان أو البصيرة، حيث يمتزج الشخص العارف بالشيء المعروف بحيث لا تكون هنالك تفرقه بين الذات من جهة والموضوع من جهة أخرى.[٦]

قال جون لوك: إن الوحي يقدم معرفة جديدة وهي موجودة في الكتاب المقدس وهي معرفة بعيدة، وهي لا تناقض العقل كما وضح ذلك في كتابه (معقولية المسيحية) ويمكن امتحان هذه المعرفة عن طريق المعجزات، والمعجزات نؤمن بها وإن كانت فوق العقل، ولكنها ليست من الخُلف المنطقي ولذلك فهي غير متناقضة.

---

(١) تمهيد للفلسفة، ص ١٤٩.

(٢) مالبرانش نيكولا: فيلسوف فرنسي (١٦٣٨- ١٧١٥م) فيلسوف عقلاني، تأثر بأفكار أوغسطين وديكارت، فأظهر الدور الفعال للرب في مناحي الحياة.

(٣) نقلا عن جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، ص ١٠٠.

(٤) هنري برجسون: فيلسوف فرنسي (١٨٥٩- ١٩٤١م) صعد كرسي الفلسفة القديمة والحديثة في دار المعلمين، ثم حاز على جائزة نوبل، من أهم مؤلفاته: الفكر والمتحرك، الطاقة الروحية، منبعا الأخلاق والدين. انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، ص ١٦٢.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٥٣٤.

(٦) نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، مؤسسة هنداوي، بريطانية، ط١، ٢٠١٧م، ص ٥٩.

وقال لوك: لقد ساهمت العلاقة الوثيقة بين النبوءات بالإضافة إلى المعجزات في إعطاء الحواريين معرفة موحى بها.[١]

قال فولتير[٢]: إن لوك هرقل الميتافيزيقيا وقد وضع حدود العقل البشري.[٣]

هذا اختصار شديد لنظرية المعرفة عند الحكماء الغربيين، وهي مقدمة ضرورية لنظرية المعرفة في الإسلام وعند المسلمين.

* * *

(١) جون لوك مقدمة قصيرة، تأليف: جون دَن، انظر: ص ١٠٠.

(٢) فولتير: فرانسوا ماري آروويه (١٦٩٤- ١٧٧٨م) أديب وكاتب وشاعر ومسرحي وفيلسوف، دعا إلى الإصلاح الاجتماعي، من أهم مؤلفاته الفلسفية: المعجم الفلسفي، الرسائل الفلسفية. انظر: معجم الفلاسفة، الطرابيشي، ص ٤٧١.

(٣) معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٥٩٩.

المبحث الثاني

الإمام الأشعري ونظرية المعرفة

- **المطلب الأول: المدخل إلى نظرية المعرفة الإسلامية.**

مما لا شك فيه أن الإسلام دين متكامل، لأنه ليس من صنع البشر، وهو يحتوي على حُزم فكرية عقدية وشرعية وأخلاقية متنوعة، وأهمها الحزمة العقائدية التي تجيب على أهم التساؤلات في القضايا الفكرية والفلسفية الكبرى، مثل: الخالق، الكون، الإنسان، البداية والنهاية ، كيف المسير وإلى أين المصير؟

ظل الغرب متعصبا على الشرق، مانعا إياه من الاعتراف بمزاياه، أما اليوم فلم نعد بحاجة إلى الاستدلال على أصالة الفكر العربي والإسلامي بعد أن أميط اللثام عن بعض جوانب هذا الفكر، وبعد أن سقطت الدعاوى القائلة بعقم الفكر العربي الإسلامي، ذلك العقم الذي قالت به الأوساط الاستشراقية غير المنصفة؛ لكي تلغي كل إبداع في فكرنا العربي المسلم، لدوافع عنصرية مفضوحة ولشطب كل الجهود العقلية: الكلامية والفلسفية والعلمية، التي تفتق عنها الذهن العربي المسلم في عصر الازدهار الحضاري بدعوى: الموضوعية والتجرد.

ومن أجل احتواء كل الاسهامات الكلامية والفلسفية والعلمية عملت هذه الأوساط على إلحاق هذه الاسهامات بمدارس فكرية يونانية، تظهر من خلالها مفكرينا وكأنهم لم يأتوا بجديد !! بل هم تبع لفلاسفة الإغريق بدعوى أن كل ما فعلوه أنهم نقلوا لنا الفكر اليوناني وشرحوه وحفظوه من الضياع ليصل أخيرا إلى الأوربيين في عصر النهضة،[١] حيث قام الأوربيون بوصل خيط الابداع بين القديم والجديد.[٢]

وهنا يأتي دور الباحث وبحثه في فلسفة نظرية المعرفة، وكشف الأوائل من المتكلمين والفلاسفة المسلمين الذين نظَّروا لها وكتبوا حولها.

ونحن عندما نبحث عن نظرية المعرفة في الإسلام لا نبحث عن المصطلحات والألفاظ المحضة وإنما نبحث عن المعاني لنظرية المعرفة، وهل الإسلام أجاب عن تساؤلات نظرية المعرفة من إمكانها وطبيعتها ومصادرها أو لا؟ وهل كان المسلمون تبعاً لغيرهم في هذه النظرية أو أنهم أضافوا شيئاً جديدا على من

(١) لعلنا في كتابنا (المناظرة الكبرى بين فيلسوف الغرب رينان وفيلسوف الشرق الأفغاني) قد بينا مدى تعاسة وتعصب رينان حول الشرق عموما وحول العرب خصوصا. مطبوع مكتبة أمير للنشر - عراق - كركوك.

(٢) الفلسفة الإسلامية، د. علي حسين الجابري، دار: الزمان، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٤٥.

سبقهم أو أنهم أسسوا نظرية جديدة تختلف عما سبق؟

هذا وغيره ما نحاول البحث عنه في هذه الأوراق القليلة.

يمكن أن نجمل نظرية المعرفة فنقول: هي دراسة منظمة أو بحث في المعرفة من حيث أصلها وماهيتها و إمكانها وطرق الوصول إليها وطبيعتها وحدودها وقيمتها.[١]

- **اهتمام المسلمين بنظرية المعرفة**

اهتم المسلمون بنظرية المعرفة لأن المعرفة هي أعلى وظيفة إنسانية فعليها ينبني الاعتقاد والإيمان والعمل، وبها تميز الإنسان عن سائر المخلوقات.

إن المعتزلة قدموا بحوثا رائدة في نظرية المعرفة، وهذا ما نجده عند القاضي عبد الجبار الهمداني[٢] الذي جمع تراث المعتزلة وحققه في موسوعته (المغني في أبواب التوحيد والعدل) حيث أفرد لها مجلدا كاملا بعنوان (النظر والمعارف) أودع فيه أغلب موضوعات نظرية المعرفة مثل حد العلم والمعرفة والإدراك، وما هي طرق المعرفة؟ ودرجات المعرفة ... إلخ

أما الأشاعرة فقد حرروا مسائل المعرفة وأضافوا عليها نظريات جديدة، مثل: إن الله يخلق العلم عقيب النظر لا به، وأبانوا موقفهم من العلية وأنها بحسب العادة والإمكان دون الضرورة، وأن لا فاعل بالذات إلا الله دون القوى والطبائع المودعة، وأن أفعال الله غير معللة حاشاه، وهذا ما نجده عند الإمام الأشعري بوضوح. إضافة إلى طريقة الجدل والاستدلال البرهاني الذي تميز به عمن سواه. ولعل الإمام الغزالي دفع نظرية المعرفة إلى مداها الأوسع حيث قدم للعالم نظرية المنهج النقدي للمعرفة وفلسفة الشك المنهجي كما هو واضح في كتابه (المنقذ من الضلال) ولا ننسى عمالقة المذهب كالإمام الباقلاني والجويني والإمام الفخر الرازي وغيرهم. وهذا يدل على أن المفكرين المسلمين هم أول من أفرد نظرية المعرفة بالمباحثة والاستقلال.

وهذا ردٌّ على المفكر (محمود زيدان) وكتابه: نظرية المعرفة. حيث قال: إن المتكلمين والصوفية ليس لديهم نظرية متكاملة أو شبه متكاملة عن المعرفة، وأن الفلاسفة دون غيرهم هم من لديهم نظرية متكاملة أو شبه متكاملة عن المعرفة.[٣]

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح عبد الحميد الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط١، ١٩٩٢م. ص٦٤.

(٢) القَاضِي عَبْدُ الجَبَّارِ بنُ أَحْمَدَ بنِ عَبْدِ الجَبَّارِ الهَمَذَانِيُّ (ت: ٤١٥هـ) العَلَّامَةُ، المُتَكَلِّمُ، شَيْخُ المُعْتَزِلَة، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، مِنْ كِبَار فُقَهَاء الشَّافِعِيَّة. وَلِي قَضَاء القُضَاة بِالرَّيّ، تَخَرَّجَ بِهِ خلقٌ فِي الرَّأْي الْمَمْقُوت، من تصانيفه: شرح الأصول الخمسة، المغني، دلائل النبوة، طبقات المعتزلة. انظر: تاريخ بغداد للخطيب، (١١/ ١١٤). وكذا: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٢٤٥).

(٣) نظرية المعرفة، محمود زيدان، ص١٧٣.

- **المطلب الثاني: الإمام أبو الحسن الأشعري وحياته العلمية.**

الإمامُ أبو الحسن الأشعري رائدُ الفكر السُني، صاحب التواليف والتصانيف العديدة في علم الكلام، ومؤسس المنهج العقدي المتكامل، حيث جعل النظر العقلي مُوصِلا لعقائد الشرع التي ثبتت بالنقل، وهو منهج القرآن الذي دعا إليه الإسلام وحث عليه.

برع في النقد والمناظرة وحشد الأدلة وترتيب مقدماتها، حتى حرَّر عقائد أهل السنة والجماعة، وخلصها من الشكوك والشبه ودفعها عنها، وإبطال دعوى الخصوم، وجعل ذلك عِلما مفردا بالتدوين. فكان لغيره سابق وبالعطايا والخيرات لغيره سابغ.

اسمه: أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ سَالِمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُوسَى ابنِ أَمِيْرِ البَصْرَةِ بِلاَلِ بنِ أَبِي بُرْدَةَ ابنِ صَاحِب رَسُوْل اللهِ ﷺ أَبِي مُوْسَى عَبْدِ اللهِ بنِ قَيْس بن حَضَّارٍ الأَشْعَرِيُّ، اليَمَانِيُّ، البَصْرِيُّ.[١]

ولادته ووفاته: ولد أَبُو الحسن الأشعري فِي سنة ستين ومائتين (٢٦٠هـ)، ومات سنة نيف وثلاثين وثلاث مائة.[٢] وقال الإمام ابن فورك[٣]: (وَقد عَاشَ بعد ذَلِك إِلَى سنة أَربع وَعشْرين وثلثمائة،٣٢٤هـ)[٤].

شيوخه: هم علماء الأمة المبرَّزون، منهم:

الإمام زكريا الساجي: ذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكٍ أَنَّ إسماعيل والد الإمام كَانَ سُنِّيًّا جَمَاعِيًّا حَدِيثِيًّا أَوْصَى به عِنْدَ وَفَاتِهِ إِلَى الإمام زَكَرِيَّا بْنِ يَحْيَى السَّاجِيِّ (ت: ٣٠٧هـ) وَهُوَ إِمَام الْفِقْه وَالْحَدِيثِ وعنه أخذ مذهب أهل الحديث.

الإمام عبد الرحمن بن خلف الضبي البصري (ت ٢٧٩ هـ) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد. سمع منه الأشعري وروى عنه في تفسيره.

---

(١) تبين كذب المفتري، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دار: الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ. ص: ٣٤. وكذا: سير أعلام النبلاء للذهبي، (١٥/ ٨٥).

(٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (١٣/ ٢٦٠).

(٣) محمد بْن الحَسَن بْن فُورَك، أبو بَكْر الإصبهانيّ (ت: ٤٠٦هـ). الإِمَام الْجَلِيل والحبر الَّذِي لاَ يجارى فقها وأصولا وكلاما ووعظا ونحوا مَعَ مهابة وجلالة وورع بَالغ وهو الرجل الصالح، أقام بالعراق ودرس فيها وأخذ المذهب الأشعري من أبي الْحسن الْبَاهِلِيّ، وتخرَّج بِهِ طائفة من العلماء منهم: أبو بَكْر البَيْهَقيّ، وأبو القاسم القُشَيْريّ، وآخرون. استوطن نيسابور وبنى له مدرسة ودارا، فدرس وأفاد وبلغت تصانيفه من المئة، وكان شديد الرد على الكرامية، فسمّوه فمات، ومشهده بها ظاهر يزار ويستسقى به وتجاب الدعوة عنده. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٢٧٢). وكذا: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/ ١٢٧).

(٤) تبين كذب المفتري، ابن عساكر، ص١٣٥.

الإمام أبو خليفة الجمحي البصري (ت: ٣٠٥ هـ). وكان ثقة صادقاً مأموناً، أديباً فصيحاً مفوهاً، وعاش مائة عام سوى أشهر.

الإمام شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي (ت ٣٠٦ هـ) إمام أصحاب الشافعي في وقته.

الإمام محمد بن يعقوب المقرئ التيمي البصري (ت: ٣٣٠هـ تقريبا) وكان بصيراً بقراءة يعقوب الحضرمي، عدلاً حجةً مشهوراً. سمع منه الأشعري، وروى عنه في تفسيره.

الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي (ت ٣٤٠ هـ) شيخ الشافعية في عصره، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج وبرع فيه وانتهت إليه الرئاسة بالعراق بعد ابن سريج.

وكذلك أخذ العلم عن سهل بن نوح وطبقتهم، ويروي الإمام الأشعري عنهم بالإسناد في تفسيره كثيرا.(١)

تلامذته: اتباع الإمام الأشعري وتلامذته هم علماء الأمة من أصحاب المذاهب المتبعة من الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة، ومن بعدهم جماهير الأمة الإسلامية، بما فيها من علماء وصالحين وأتقياء وأولياء، وهؤلاء لا يجتمعون على ضلالة؛ لأنهم نخبة هذه الأمة، والمنفي عنهم الاجتماع على الضلالة بنص الحديث المشهور: لا تجتمع أمتي على الضلالة.(٢)

ومن أعيان تلامذته المباشرين من الطبقة الأولى: أبو عبد الله بن مجاهد الطائي: المتكلم، وأبو الحسن الباهلي: شيخ الأئمة (كالباقلاني وابن فورك والأستاذ أبي إسحاق). وأبو محمد الطبري العراقي من شيوخ الحاكم. أبو بكر القفال الشاشي: شيخ الشافعية فيما وراء النهر. وأبو سهل الصعلوكي: الفقيه الأديب اللغوي النحوي الشاعر المتكلم المفسر المفتي الصوفي. وأبو بكر الجرجاني الإسماعيلي: صاحب المستخرج على البخاري. وغيرهم مما يقصر القلم عن الإحاطة بهم.(٣)

- **سبب تركه للاعتزال ومنافحته عن مذهب أهل السُنة والجماعة:**

قال الإمام ابن عساكر: الْأَشْعَرِيُّ شيخُنَا وإمامُنَا وَمَن عَلَيْهِ معولنا قَامَ على مَذَاهِب الْمُعْتَزلَة أَرْبَعِينَ سنة وَكَانَ لَهُم إِمَامًا ثمَّ غَابَ عَن النَّاس فِي بَيته خَمْسَة عشر يَوْمًا فَبعد ذَلِك خرج إِلَى الْجَامِع فَصَعدَ الْمِنْبَر وَقَالَ معاشر النَّاس إِنِّي إِنَّمَا تغيبت عَنْكُم فِي هَذِهِ الْمدَّة لِأَنِّي نظرت فتكافأت عِنْدِي الْأَدِلَّة وَلم يتَرَجَّح عِنْدِي

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١٣/ ٢٦٠). وكذا سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٨٦).

(٢) رواه الترمذي في سننه، برقم: (٢١٦٦) ، وابن ماجه برقم: (٣٩٥٠)، وأحمد والحاكم وغيرهم بألفاظ متباينة، قال العجلوني في «الكشف» (٢/ ٣٥٠): وبالجملة فالحديث مشهور المتن، وله أسانيد كثيرة. وشواهد عديدة في المرفوع وغيره. وأورده الألباني في «الصحيحة» (١٣٣١).

(٣) تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري، ابن عساكر، ص ١٨٣.

حق على بَاطِل وَلَا بَاطِل على حق فاستهديت الله تبَارك وَتَعَالَى فهداني إِلَى اعْتِقَاد مَا أودعته فِي كتبي هَذِهِ وانخلعت من جَمِيع مَا كنت أعتقده كَمَا انخلعت من ثوبي هَذَا وانخلع من ثوب كَانَ عَلَيْهِ وَرمى بِهِ وَدفع الْكتب إِلَى النَّاس، فَمِنْهَا كتابُ اللمع، وَكتابٌ أظهرَ فِيهِ عوارَ الْمُعْتَزلَة سَمَّاهُ بِكِتَاب كشف الْأَسْرَار وهتك الأستار، وَغَيرهمَا فَلَمَّا قَرَأَ تِلْكَ الْكتب أهل الحَدِيث وَالْفِقْه من أهل السّنة وَالْجَمَاعَة أخذُوا بِمَا فِيهَا وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إِمَامًا حَتَّى نسب مَذْهَبهم إِلَيْهِ.[1]

الإمام الأشعري هو مجدد القرن الرابع: فقد ذكر الحافظ السيوطي المجددين إلى القرن التاسع في أرجوزة سماها: (تحفة المهتدين بأخبار المجددين) قال فيها:

وَابْـــــن سُـــرَيْـــج ثَـــالِـــثُ الْأَئِـــمَّـــةْ وَالْأَشْـــعَـــرِيّ عَـــــدَّهُ مَـــنْ أَمَّـــــهْ

مؤلفاته: اشتهر الإمام الأشعري بكثرة تواليفه، والتي غلب عليها طابع الرد أو النقض للآراء المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، مما يعني أن الإمام الأشعري ظل يدافع عن عقائد أهل السنة التي تمثل مذهب أهل الحق إلى أن توفي رضي الله عنه.

وقد أبدع الإمام ابن فورك (ت: ٤٠٦) وهو تلميذ تلميذه وثمرة نافعة من ثماره، في جمع أقوال الإمام وآرائه من (٩٠ كتابا) من كتبه وأودعها في مجلد واحد وسمه بـ (مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري).

لا يخفى على الباحث اللبيب أن أغلب كتب الإمام مفقودة الآن، ويرجع الفضل إلى معرفة أسمائها إلى الإمامين الكبيرين ابن فورك وابن عساكر حيث نقل الأخير من مقدمة كتاب (العمد) للأشعري ما ذكره الإمام من مؤلفاته وأودعها في كتابه (تبيين كذب المفتري). فحفظها من الضياع.

ونقل ابن عساكر الدمشقي بسنده عنْ أَبِي الْمَعَالِي بن عَبْدِ الْمَلِكِ الْقَاضِي قَالَ سَمِعت من أَثِق بِهِ قَالَ رَأَيْت تراجم كتب الإِمَام أَبِي الْحسن فعددتها أَكثر من مِائَتَيْنِ وثلثمائة مُصَنف وَفِي ذَلِك مَا يدل على سَعَة علمه.[2]

وقال الإمام ابن عساكر: (فَأَما أسامي كتب الشَّيْخ أَبِي الْحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِمَّا صنفه إِلَى سنة عشْرين وثلثمائة فَإِنَّهُ ذكر فِي كِتَابه الَّذِي سَمَّاهُ الْعمد فِي الرُّؤْيَة أسامي أَكثر كتبه فَمن ذَلِك أَنه ذكر أَنه صنف كتابا سَمَّاهُ الْفُصُول فِي الرَّد على الْمُلْحِدِينَ والخارجين عَن الْملَّة. إثبات النظر وحجة العقل. الموجز. الإمامة. الاستطاعة. الصفات الصغير. الجواب على الصفات وهو الكبير. جواز رؤية الله. اللمع. مقالات الإسلاميين. مقالات الملحدين. نقض أصول الجبائي. نقض تأويل الأدلة على البلخي...الخ)[3]

(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري، ابن عساكر، ص ٣٩.
(٢) تبيين كذب المفتري، ابن عساكر، ص ١٣٦. والرقم المذكور هكذا في المطبوع.
(٣) تبيين كذب المفتري لابن عساكر، انظر: ص ١٢٧ -ى١٣٧.

ويعلم أن المطبوع من مؤلفاته خمس وهي (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. واللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام. رسالة إلى أهل الثغر باب الأبواب. الإبانة في أصول الديانة). ولقدم زمن المؤلف، وشهرته، لم تنج مؤلفاته من التحريف.

- **ثناء العلماء عليه:**

قال الخطيب البغدادي: هو الْمُتَكَلِّمُ صَاحِبُ الْكُتُبِ والتصانيف فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُلْحِدَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْخَوَارِجِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ الْمُبْتَدِعَةِ وَهُوَ بَصْرِيٌّ سَكَنَ بَغْدَادَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ بِهَا... إلى أن قال: وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم»[١]

قال الْأُسْتَاذ الإِمَام أَبو سهل الصعلوكي أَو الشَّيْخ الإِمَام أَبو بكر الإسماعيلي وَالشَّكّ من الراوي: أعَاد الله تَعَالَى هَذَا الدّين بعد مَا ذهب يعْنى أَكْثَره بِأَحْمَد بن حَنْبَل وأبى الْحسن الأشعري وأبى نعيم الإستراباذي.

وَقَالَ لِسَان الْأمة القاضي أَبُو بكر الباقلاني: أفضل أحوالي أَن أفهم كَلَام أَبى الْحسن الأشعري.

وَقَالَ الْأُسْتَاذ أَبُو إِسْحَاق الإسفرايني: كنت في جنب الشَّيْخ أَبى الْحسن الباهلي كقطرة في جنب الْبَحْر، وَسمعت الباهلي يَقُول: كنت في جنب الأشعري كقطرة في جنب الْبَحْر.[٢]

مذهبه الفقهي: بدأ الشيخ الإمام حنفياً لأنه كان ربيب المعتزلة وأغلبهم في الفروع حنفية، وَقد زعم بعض النَّاس أَن الشَّيْخ كَانَ مالكي الْمَذْهَب وَلَيْسَ ذَلِك بِصَحِيح إِنَّمَا كَانَ شافعيا تفقه على أَبى إِسْحَاق المروزى نَص على ذَلِك الْأُسْتَاذ أَبُو بكر ابْن فورك في طَبَقَات الْمُتَكَلِّمين والأستاذ أَبُو إِسْحَاق الإسفراينى فِيمَا نَقله عَنهُ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد الجوينى فى شرح الرسَالَة.[٣] بل نقلنا أنه تتلمذ على يد الشيخ أبي إسحاق المروزي إمام الشافعية في عصره ومجدد القرن الثالث ابن سريج رحمه الله تعالى.

عبادته وزهده: وَأما اجْتِهَاد الشَّيْخ في الْعِبَادَة والتأله فَأمر غَرِيب، ذكر من صَحبه أَنه مكث عشْرين سنة يصلى الصُّبْح بِوضُوء الْعَتَمَة وَكَانَ يَأْكُل من غلَّة قَرْيَة وَقفهَا جده بِلَال بن أَبى بردة بن أَبى مُوسَى الأشعري على نَسْله قَالَ وَكَانَت نَفَقَته في كل سنة سَبْعَة عشر درهما كل شهر دِرْهَم وشيء يسير.

ثم ختم التاج السبكي ترجمة الإمام بقوله: «وَاعْلَم أَنا لَو أردنَا اسْتِيعَاب مَنَاقِب الشَّيْخ لضاقت بِنَا الأوراق وكلت الأقلام وَمن أَرَادَ معرفَة قدره وَأَن يمتليء قلبه من حبه فَعَلَيهِ بِكِتَاب تَبْيِين كذب المفتري فِيمَا نسب إِلَى الإِمَام أَبى الْحسن الأشعري الذى صنفه الْحَافِظ ابْن عَسَاكِر وَهُوَ من أَجَلّ الْكتب وَأَعْظَمِهَا فَائِدَة وأحسنها، فَيُقَال كل سنى لَا يكون عِنْده كتاب التَّبْيِين لِابْنِ عَسَاكِر فَلَيْسَ من أَمر نَفسه على بَصِيرَة، وَكَانَ

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار: الغرب الإسلامي - بيروت، ط١، ٢٠٠٢م. (١٣/ ٢٦٠).
(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري، ابن عساكر، ص ١٢٥.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، (٣/ ٣٥٢).

مشيختنا يأمرون الطّلبَة بِالنّظرِ فِيهِ»[١]

فتوى في حق أتباع المذهب الأشعري: كتب الإمام الدَّامغَانِي (أبو حنيفة الصغير) و ابراهيم بن عَليّ الفيروزباذي ومُحَمَّد بن أَحْمَدَ الشَّاشِي: إِن الأشعرية أَعْيَانُ السّنة ونصَّارُ الشَّرِيعَة انتصبوا للرَّدّ على المبتدعة من الْقَدَرِيَّة والرافضة وَغَيرهم فَمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السّنة وَإِذا رفع أَمر من يفعل ذَلِك إِلَى النَّاظر فِي أَمر الْمُسلمين وَجب عَلَيْهِ تأديبه بِمَا يرتدع بِهِ كل أحد.[٢]

- **المطلب الثالث: الإمام أبو الحسن الأشعري ونظرية المعرفة.**

إن نظرية المعرفة تعني بمفهومها الواسع: كل البحوث الفلسفية الهامة التي تتعلق بظاهرة المعرفة، نحو المنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والميتافيزيقيا.

أما معناها الضيق «هو العلم الذي يبحث فيه عن ماهية المعرفة ومبادئها وأصولها وشروطها وحدودها»[٣].

ومن خلال السرد القادم سنلاحظ أن الإمام الأشعري قد تطرق إلى المباحث الضرورية في المعرفة، ولا يخفى على ذي لب أن الإمام له مؤلف تحت عنوان (المعرفة) وآخر(الإدراك)، وقد خصص الإمام ابن فورك في كتابه (مقالات أبي الحسن الأشعري) الفصول الأولى المتناولة لنظرية المعرفة وهي:

١- في إبانة مذهبه في معنى العلم والمعرفة.

٢- أحكام العلم وأوصافه وأسمائه.

٣- مدارك العلوم.

٤- أخطاء الإستربادي في باب أصول المعرفة. (نقد).

٥- مدارك الحق فيما اختلف فيه أهل الصلاة.

٦- دلائل العقول وفي معنى العقل والنظر والخاطر وكيفية ترتيب الغائب عن الحسن على المشاهَد بالحس والنظر والعقل.

سننقل نصوص الإمام بدون تغير ما استطعنا إلى ذلك سبيلا لتأكيد أصالة النصوص وصحة نسبتها إلى قائلها، وما أحدثناه من تغيير فهو لضرورة تناسق العبارة، أو استحداث عنوان للموضوع المطروح. وسنضع هذه النصوص في مباحثها الملائمة لنظرية المعرفة، وعلى هذا سنقسم المطلب إلى مسائل تشمل: النصوص الواردة عن الإمام الأشعري في مبحث طبيعة المعرفة، وإمكان المعرفة، ومصادر المعرفة.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، (٣/ ٣٥١).

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، ص ٣٣٢.

(٣) تمهيد الفلسفة ،ص١١٠.

- **المسألة الأول: أقوال الإمام الأشعري في طبيعة المعرفة.**

قول الإمام الأشعري في مصطلح المعرفة.

إن الإمام أبا الحسن الأشعري (رحمه الله تعالى) كان لا يفرق بالمعنى بين مصطلح العلم والمعرفة، بل كان عنده مصطلح اليقين والفهم والفطنة والدراية والعقل والفقه كلها بمعنى العلم[١] ، أي ألفاظ مترادفة وسيعتمد الإمام من بينها لفظ العلم؛ لان الله اختصه فسمى نفسه عالماً دون بقية الأسماء.

وقال رحمه الله تعالى: إن معنى العقل هو معنى العلم، وهو معنى المعرفة، ويعتمد في ذلك على اللغة وما عليه أهلها؛ لأنهم لا يفرقون بين قول القائل: (عقلته وعرفته وعلمته) ويحيلون قول القائل إذا قال: (عقلته ولم أعلمه) أو يقول: (علمته ولم أعقله) أو يقول: (عرفته ولم أعلمه).

فتبين من ذلك أن العلم والمعرفة معناهما واحد. فكذلك تبين بمثله أن العقل والعلم معناهما واحد.[٢]

قول الإمام الأشعري في تعريف العلم أو المعرفة.

قال الإمام الأشعري: ما به يَعلم العَالِمُ المَعلومَ، لأنه لا يصح الاشتقاق إلا بعد وجود الصفة في المشتق ولمن قامت به، وأنكر أن يكون العلم: اعتقاد الشيء على ما هو به؛ لأن أصل العقد والاعتقاد إنما يتحقق بغير المعاني، وإذا استعمل فعلى سبيل التوسع أو المجاز.[٣]

وهل الرؤية والسمع والبصر والحس هي العلم بالمرئي والمسموع والمبصَر والمحسوس على وجه مخصوص أو غيره؟

للإمام الأشعري في هذه المسألة قولان: فقد ذكر في كتابه (الموجز) و (الرؤية الكبير) أن الرؤية هي علم بالمرئي، وكذا السمع هو علم بالمسموع على وجه مخصوص. وذكر في كثير من كتبه: أن الحس هو العلم بالمحسوس.

والقول الثاني: أنه غيره، ذكره في كتابه (الإدراك) و(العمد) و(النقض على الخالدي) حيث أنكر على الخالدي قوله: إن وصف الله تعالى بأنه راء وسامع على معنى أنه عالم بالمرئي والمسموع. وأنكر على المعتزلة في كتاب (الإدراك) قولهم: إن الإدراك هو العلم بالمدرك. ونصر هذا القول.

ومن أجل ذلك وغيره قال الإمام ابن فورك: وهذا الأولى بالحق عندي، والأقرب من أصوله وقواعده.[٤]

---

(١) مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، لابن فورك، ص٦ ، سنشير له لاحقاً بمجرد مقالات الأشعري.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص٢٩٩.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص٦.

(٤) مجرد مقالات الاشعري، ص٦.

- **قول الإمام الأشعري في الإدراك والعلم:**

هل الإدراك هو العلم بالشيء أو غيره.

قال الإمام الأشعري: الإدراك هو ما يحدث عنه العلم، وهو ليس العلم بالمدرك كما قالت المعتزلة.

وبعبارة ابن فورك عن الإمام الأشعري: الإدراك هو معنى زائد عن العلم، وعنه يحدث العلم.

قال الإمام ابن فورك: ولم نجد نصاً للإمام الأشعري يوضح لنا فيه هل العلم يحدث عن الإدراك على الاقتران أم على الافتراق بأقل قليل الحال والوقت. إلا أنه كان يقول: لا يجوز أن ندرك ما لا نعلمه بحال. وعلى هذا يُحمل قول الإمام في أوائل كتبه: إنَّ العلومَ كلَها تدرك من ثلاثة أوجه من الحس والخبر والنظر.[١]

ومن هنا نفهم الخلاف العقدي الذي خلده الإمام اللقاني في جوهرته، فقال:

وهل له إدراك أوْ لا خلف وعند قوم صحَّ فيه الوقف

توضيح مسألة الإدراك للإنسان والخالق، من كلام الإمام الأشعري:

للإمام الأشعري تعريفان في الإدراك، كما مرَّ، الأول: الإدراك هو العلم بالمُدرك. والثاني: الإدراك هو معنى زائد عن العلم، وعنه يحدث العلم. وعلمنا أن الإمام نصر الثاني وأيده، كما قال ابن فورك. وعلى التعريف الثاني: فإن السمع والبصر للمخلوق إدراكان، أما الشم والذوق واللمس مماسات مخصوصة بجوارح مخصوصة يحدث عند كل نوع من هذه المماسة نوع من الإدراك بمدرك مخصوص.

وعلى هذا كان الإمام الأشعري يفرق بين جواز أن يسمع البارئ تعالى ويبصر، ومنع أن يشم ويذاق ويلمس. وعقب ابن فورك فقال: ربما كان يقسم ذلك إلى المماسة والإدراك، فيقول: إذا أردتم بالشم والذوق المماسة فذلك محال. وإن أردتم الإدراك فذلك جائز، ولا نقطع القول بواحد منها.[٢]

قول الإمام الأشعري في أحكام العلم أو المعرفة:

قال الإمام الأشعري: العلم نوعان قديم وحادث، فأما أحكام العلم التي يجري مجراها في الحد والحقيقة فهي تجري في الشاهد والغائب. وأما ما يجري مجراها في الأوصاف والشروط فهي خاصة بالعلم الحادث دون القديم. والعلم الحادث عَرَض، والعرض لا يبقى زمانيين، كبقية الأعراض أي لا يصح وجود شيء منها أكثر من وقت واحد. أي يستحيل وجوده في حالين متصلين.

وكان الإمام الأشعري يقول: إن العلم المحدث يجوز أن يتعلق بمعلومات كثيرة على طريق الجملة والتفصيل.

---

(١) مجرد مقالات الاشعري، ١٤.

(٢) مجرد مقالات الاشعري، ص١٤.

والعلم الحادث وهي معارفنا منها ضرورة ومنها كسب.

فالعلم قسمان: ضروري وكسبي. فالضروري: هو ما حُمل عليه الإنسان وأُجبر عليه، ولو أراد التخلص منه لم يجد إليه سبيلا. وقال الإمام الأشعري في بعض كتبه، إن الضرورة تستعمل في هذه المعاني على وجهين:

١- ضرورة حاجة: قال تعالى {فمن اضطر في مخمصة} المائدة.

٢- ضرورة تحدث فيه مع الكراهة لها: كقول القائل اضطررت الى فعل كذا واضطرني السلطان إلى مالي له. إذا أكرهه عليه.

وفي هذا القسم الأخير تكون الضرورة كسبية، أي يجوز أن يكون الشيء الواحد كسباً وضرورة من وجهين مختلفين.

وقال الإمام الأشعري في كتابه (المختصر في التوحيد والقدر): «فعلى هذا الأصل نجيز علماً لا ضرورة ولا كسباً، رداً و إبطالاً لقول المعتزلة: إنَّ العلوم كلَّها لا تخلو من أن تكون ضرورة أو كسباً لنفي علم الله»

وكان يجيز العلم والجهل بالشيء الواحد من وجهين مختلفين، كعلم العالِم بوجود العالَم وجهله بحدوثه، والوجهين بمعنى طريقي العلم، فطريق العلِم بوجود العالَم حسي، وطريق العلم بحدوثه عقلي استدلالي[1].

- **قول الإمام الأشعري في منازل العلوم ومراتبها:**

يقول الإمام: العلوم الضرورية هي أصل العلوم المكتسبة، فالمستدل ينظر فيما عَلِمَه ويرد عليه ما لم يعلمه، فإذا استويا في المعنى ساوى بينهما في الحكم.

وكان يقول: إن العلوم المكتسبة قد تكون أصلاً لعلوم أخرى مكتسبة، كما كانت الضرورية أصلاً للمكتسبة.

مثال: الحكم على الجوهر بالحدوث علم كسبي مبني على أن الأعراض لا تنفك عن الجواهر وهو علم كسبي، وأن الأعراض حادثة، وحدوثها علم ضروري بالمشاهدة والحس.[2]

- **قول الإمام الأشعري في المعلوم والمجهول:**

قال الإمام الأشعري: إن الذات الواحدة يصح أن تعلم وتجهل بعلم وجهل متغايرين، ويصح أن يعلم الذات الواحدة بعلمين مختلفين لعالم واحد، ولا يصح أن يعلم الذات الواحدة بعلمين مثلين لعالم واحد في حالة واحدة.

ويصح أن يجهل بجزأين من الجهل مختلفين، ولا يصح أن يجهل بجهلين متفقين في وقت واحد، والشيء الواحد يصح أن يكون معلوما من وجهة ومجهولا من وجه آخر.

---

(١) مجرد مقالات الأشعري ص١٠.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص ١٠.

وقال: لا يجوز أن يكون الشيء معلوما مجهولا من وجه واحد؛ لأن العلم بالشيء يضاد الجهل به من وجه واحد، وليس كذلك العلم به والجهل به من وجهين.

وقال: إن طريق العلم بوجود العالم ضرورة، وطريق العلم بأنه محدث استدلال، ولا ينكر أن يوجد العلم بوجوده ضرورة ولا يوجد العلم بحدوثه إذا أعرض الجاهل عن طريقة النظر على الوجه الذي يؤديه إلى العلم بحدوثه.[١]

- **قول الإمام الأشعري في الطريق المؤدي إلى معرفة الله تعالى ورسوله ﷺ:**

إن معرفة الله تحدث عن طريق الاكتساب وذلك عن طرق النظر في آياته والاستدلال عليه بأفعاله، وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن المعرفة تكون ضرورية.[٢] وتتم معرفة الرسول ﷺ عن طريق الاكتساب أيضا؛ وذلك عن طريق الاستدلال بالمعجزات عليه.[٣]

- **قول الإمام الأشعري في الوجود والإدراك:**

وكان الإمام يقول: يجوز أن تكون موجودة وعدم إدراكنا لها لوجود مانع وهذا يجري مجرى ما يفعله الله تعالى من طريق العادة التي يجوز فيها نقضها علة وجه الخصوص. أي يجوز أن تكون بعض الأشياء موجودة الآن ولكننا لا ندركها لوجود مانع، فالهواء حولنا مليء بالأشياء كالألوان والأصوات ولكننا ندرك بعضها حسب قابلية البصر والسمع الخاص بنا.[٤]

- **المسألة الثانية: أقوال الإمام الأشعري في مصادر المعرفة.**

قال الإمام الأشعري: إنَّ العلوم كلها تدرك من ثلاثة أوجه: الحس والخبر والنظر.[٥]

- **قول الإمام الأشعري في المعرفة الحسية.**

وهي الحواس الخمس: السمع والبصر إدراكان، والشم والذوق واللمس مماسات مخصوصة يحدث عنه نوع إدراك.

لهذا كان الإمام الأشعري يفرق بين السمع والبصر من جهة، والشم والذوق واللمس من جهة... وإن الحس هو الإدراك وإن العلم منه يحدث.

---

(١) مجرد مقالات الاشعري، ص ٢٣١- ٢٣٢.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

(٥) مجرد مقالات الأشعري، ص١٤.

وقال في الحاسة والإحساس والمُحس: إن المُحِس هو العالِم، والإحساس هو العِلم، والحاسة الجارحة هي محل الحس، والحس أوائل العلوم.

وكان الإمام يجعل ما عدا العلوم الحادثة عن الخبر والنظر واقعاً تحت الحس أو جارياً مجراه داخلاً في حكمه وبابه من حيث شاركه في الضرورة والتعري من وقوعه عن النظر.[١]

- **قول الإمام الأشعري في المعرفة عن طريق الخبر الصادق.**

الخبر المتواتر: هو طريق تُعلم بها الغائبات عن الحس، وكذا الغائبات التي لا يتوصل إلى العلم بها بالنظر والاستدلال، أما شرط التواتر فلم يحد له الإمام الأشعري حداً بعدد مخصوص أو بصفات مخصوصة.

بل قال الإمام: المعتبر في ذلك حال نفس السامع، فإذا حدث له العلم وزال الجهل والشك قطع بصدق المخبرين، وإن وجد نفسه على ريب وتهمة لم يقطع بصدقهم.[٢]

وضابطُ حدوث العلم القطعي في نفس السامع أن يجد وجداناً ضرورياً لا يتخالجه فيه الشك ولا يستطيع دفعه فيقطع بصدقهم.

ولم يقل الإمام الأشعري بالعدد في حد التواتر لأن الأقوال في تحديد العدد متكافئة.

وقال الإمام: ما زاد على الواحد إذا بلغوا حدَّ الكثرة على الجملة لا على التعين أوجب العلمَ على مجرى العادة الممتحنة. فأما من طريق الجواز فإنه ليس بمنكر أن يحدث ذلك النوع من العلم بذلك المعلوم ابتداء أو عند خبر الواحد، إذ ليست الأخبار موجبة على الحقيقة لذلك العلم، بل سبيل حدوثه كسبيل حدوث الولد عند الوطء، والزرع عند البذر، وكل ما يجوز وقوع خلافه على نقض العادة وهو لله سبحانه مقدور، وإن لم يحصل الآن إلا على وجه معلوم.[٣]

- **الخبر الصادق هو طريق معرفة الأحكام الشرعية.**

نعرف الأحكام الشرعية من الواجب والندب والحسن والقبيح من أفعال المكلفين عن طريق الاكتساب والاستدلال، وأنه لا يُعلم شيء منها عن طريق الضرورة والبداهة.[٤]

وقال إن المعرفة بأعيان الواجبات وأحكامها من طريق الوجوب، فهو طريق الاستدلال بخبر الصادق الموثوق بخبره المأمون في غيبه، إذ أنبأ عن عواقبها وما يلحق بفعل بعضها وترك بعضها الفاعل والتارك من

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص١٣- ١٤.
(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص١٥.
(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص١٥.
(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

الضرر والنقص والعيب والذم.[١]

وكان يقول: لا يجب على أحد شيء من جهة العقول.[٢]

ووضح رضي الله عنه: أن دلالة العقل لم تخل من دلالة السمع في جميع الأحوال، ولو توهم انفراد دلالة العقل عن دلالة السمع لصح أن يستدل بها على ما هي دلالة عليه: من أحكام الحدث والقدم في الموجودات، وترتيب أحكام معانيها، وما يجب أن تكون عليها في أنفسها لأنفسها أو لمعان، إلى سائر ما يتعلق بها من نحو هذه.

وكان الإمام يجعل ما عدا العلوم الحادثة عن الخبر والنظر واقعاً تحت الحس أو جارياً مجراه داخلاً في حكمه وبابه من حيث شاركه في الضرورة والتعري من وقوعه عن النظر.[٣]

- **قول الإمام الأشعري في المعرفة العقلية (النظر).**

قال الإمام الأشعري في دلائل العقول: الدلائل هي العلامات. ودلائل العقول هي العلامات التي وصل إليها بالعلوم المكتسبة المجتلبة بالنظر والفكرة والتأمل.

ودلائل العقول لا تصلح لكل العلوم. قال الإمام: فلا نستطيع من جهتها مثلا معرفة أحكام الأفعال من القبح والحسن والوجوب والندب على التعيين والتفصيل، وإن كان فيها دلالات يمكن أن يتوصل بها إلى معرفة أحكام الموجودات بالحدوث والقدم والأوصاف التي تتبعها وتجري مجراها وتبنى عليها.[٤]

- **قول الإمام الأشعري في النظر أول الواجبات:**

قال الإمام الأشعري: وأول الواجبات على البالغ العاقل النظرُ والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى.

وقال بعبارة أخرى: إن أول الواجبات المعرفة بالله تعالى على شرط تقدم النظر والاستدلال؛ لأن المعرفة لا يصح وقوعها إلا عن النظر والاستدلال.[٥]

- **قول الإمام الأشعري في شروط النظر:**

قال الإمام الأشعري: في شروط النظر.

١. إن النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى هو نظر مخصوص.

٢. إن النظر والاستدلال الصحيح يجب يكون من بالغ عاقل.

---

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

(٥) مجرد مقالات الأشعري، ص ٢٥٩.

٣. إن النظر والاستدلال الصحيح يجب أن لا يسبقه اعتقاد مذهب دون مذهب بتقليد. فيجب أن تكون عنده الدعاوى المختلفة والمذاهب المتضادة متكافئة عنده متساوية في الحق والباطل؛ ليبتدئ فكرة وتأملا في كل واحد مما ينظر فيه.

٤. إن النظر والاستدلال الصحيح يجب أن يكون من المتبحث المستبصر المسترشد.

٥. إن النظر والاستدلال الصحيح يجب أن يخلو من الموانع الحائلة.

٦. إن النظر والاستدلال الصحيح يجب أن لا يسبقه ميل إلى قول دون قول. وأسباب الميل:

- الميل إلى قول لأجل الراحة النفسية، وثقلها للآخر.
- الميل إلى قول لأجل ما فيه من رياسة وعز من جهة الدنيا.
- الميل إلى قول لأجل أنه مذهب الآباء وأهل البلدة.[١]

- **قول الإمام الأشعري في آلية النظر:**

قال الإمام الأشعري: بعد أن يستكمل الناظر شروط النظر فعليه أن يعرض المسألة على نفسه، ويسبر ويمتحن ويفحص، ويجعل المعلوم به ضرورة عيارا وأصلا وقانونا. إليها يرد، وبها يعتبر، ويتعرف بها حكم الصحيح والفاسد، بأن يستشهد عليه فما شهدت له منها حكم بصحته، وما شهدت عليه بالفساد حكم بفساده. فإذا خلت أحواله من الصواد المانعة والعوائق الدافعة الحائلة بين الناظر وبين العلم بما ينظر فيه وقع له العلم حينئذ بمنظوره لا محالة على الوجه الذي يطلبه.

وكان الإمام: لا يقول أن النظر على هذا الوجه المولد للعلم وموجب له. بل كان الإمام يقول: إنه يحدث للناظر على هذه الصفة العلم بحكم ما نظر فيه، كما يحدث الولد عند الوطء على وجه مخصوص، والزرع عند البذر على حالة معلومة.[٢]

- **قول الإمام الأشعري أن العلم يحصل عقيب النظر كسبي:**

لم يختلف مذهب الإمام الأشعري في هذه المسألة، فقال: إن كل ما يجوز أن يعلمه الإنسان ولم يكن له به علم فوجب أن يكون قد قام به عقيب ذلك العلم. فإن لم يتحقق العلم به عقيبه فلوجود مانع من الموانع كالجهل والشك وما يجري مجراهما، وهذه الموانع يجوز أن تُعلم. وإن إجازةَ خلافِ ذلك تؤدي إلى إجازة خلو الجوهر من الأعراض المتعاقبة عليه، وذلك محال.[٣]

---

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص ٢٦٠.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص ٢٦٠.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

وقال الإمام الأشعري: يحدث العلم عقيب النظر، وهذا الحدوث مخترع لله تعالى، مختار مكتسب للناظر أيضاً، ويجوز عنده أن ينفصل وينفرد النظر عن العلم وبالعكس ولا يسمى المنفرد عنه كسباً، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن النظر يولد العلم لا محالة.(١)

ورد الإمام الأشعري على قول المعتزلة: أن النظر يولد العلم. فقال: يستحيل أن يولد عرضٌ عرضا. فالنظر والعلم مخترعان للبارئ سبحانه، ولو فعل أحدهما دون صاحبه جاز. فالنظر لا يوجب العلم، وإنما يحدث عقيبه لعادة جرت على ذلك أو لمعنى آخر، لا على طريق الإيجاب له، أو كونه سببا موجبا له.(٢)

قول الإمام الأشعري لا سبيل لمعرفة الحسن والقبح عن طريق العقل.

لا سبيل لدلالات العقل أن تتوصل إلى معرفة أحكام الأفعال في القبح والحسن والوجوب والندب على التعين والتفصيل، وأن كان فيها دلالات يمكن أن يتوصل بها إلى معرفة أحكام الموجودات بالحوادث والقدم، إن الطريق الوحيد لمعرفة الحسن والقبح هو السمع، وأنه لا يجب على أحد شيء من جهة العقل.(٣)

أما الأحكام العقلية في معرفة الواجبات لا من ناحية الفعل والترك، كمعرفة أن الواجب في الموجود أن يكون له أول أو لا أول له، أو الواجب في الجوهر أن يكون متقارب أو متباعد، أو الواجب في الجوهرين ليس بينهما واسطة، إن هذه الواجبات ليس من جهة العقل وإنما هو وجوب من طريق الحكم للشيء في نفسه على الوجه الذي يدل عليه العقل ويقتضي كونه كذلك.

إن دلالة العقل لم تخلُ من دلالة السمع في جميع الأحوال، ولو توهم انفرادها من السمع لصح أن يستدل بها على ما هي دلالة عليه من: أحكام الحدث والقدم في الموجودات، وترتيب أحكام معانيها، وما يجب أن تكون عليها في أنفسها لأنفسها، أو غير ذلك.(٤)

- **المسألة الثالثة: قول الإمام الأشعري في إمكان المعرفة.**

بعد أن تكلمنا عن طبيعة المعرفة من حيث تعريف المعرفة ومتى تحدث وكيفية الحدوث ومراتبها وأحكامها. يتجلى لنا السؤال الجوهري عن مدى إمكانية الوثوق بهذه المعرفة ؟

وهل هي معرفة حقيقية أو لا ؟

وهل مصادر المعرفة من الحس والخبر والعقل توصل إلى حقيقة مطلقة أوْ لا ؟

---

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص١٥.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص١٥.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠.

إن هذه المسألة هي عبارة عن البحث عن اليقين ؟ فهل المعرفة اليقينية شيء يمكننا أن نصل إليه ؟

والجواب: نعم المعرفة يمكن أن نصل إليها، وتختلف بحسب درجتها ومنزلتها، فمنها اليقين القاطع، والظن الراجح، والظن العادي، والشك، والوهم.

قول الإمام الأشعري في القطع باليقين: يجب أن يفصل بين اليقين وغالب الظن والاحتجاج والتقريب، وأن يلزم التوقف عن القطع ما دام في غلبة الظن.(١)

ونصل إليها بحسب طرقها من الحس والخبر والنظر.

لذا قال الإمام الأشعري: الحواس الخمسة والأخبار المتواترة تحدث عنها العلوم الضرورية إذا وردت على شرطها.

وقال: إذا بلغوا في نقل الخبر حدَّ الكثرة على الجملة لا على التعين (لأنه لم يذهب إلى تحديد العدد في التواتر) أوجب العلم على مجرى العادة الجارية.

وقال: يقطع السامع بصدق المخبرين إذا زالت الريب والتهم، وهذا يجده السامع في نفسه وجدانا ضروريا لا يتخالجه فيه شك.

وأما النظر: وهو الفكر والتأمل والاعتبار والمقايسة وهو: ردُّ ما غاب من الحس إلى ما وجد العلم فيه لاستوائهما في المعنى واجتماعهما في العلة... وما يحدث عن النظر فهو من جملة العلوم الكسبية.(٢)

لذا قال الإمام: إن كان يوازي الحجة والبرهان استتم النظر ليفضي بتمامه إلى اليقين.(٣)

وقال الإمام: إن سبيل المحسوسات والمعلومات ضرورة في باب العقليات، كسبيل المسموعات والمنصوصات في باب الشريعة في أنها الأصول والأمهات و إليها يقع الرد وعندها تنتهي المطالبة ويقبح من السائل فيها ان يقول (لِم).(٤)

- **قول الإمام الأشعري في الضرورة والبديهة العقلية :**

بديهة العقل من مبادئ العلوم وهي من أنواع الضروريات التي تقع للعالِمِ منا، من غير نظر ولا فكر ولا رواية، ومنها معرفة الإنسان بوجوده الحادث.

وكان يعد من هذا القسم أي الأمثلة عليه:

١. العلم بأن الموجود لا يخلو من أن يكون أزليا أو حادثا. أي إما أن يكون لا أول لوجوده أو له أول بمعنى لم

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٣٧.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص١٤- ١٥.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٣٧.

(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص٣٠٣.

يكن ثم كان.

٢. العلم بأن الجوهرين والجسمين لا يخلوان من أن يكونا متقاربين أو متباعدين.

٣. العلم بأن لا فيل (حيوان كبير) بحضرتنا مع صحة أبصارنا وانتفاء الآفات عنها.

٤. العلم بعدم أصوات الرعود وما شاكلها من الأصوات ونحن نسمع الخفي من الصوت بحضرتنا.

وكان يسميها (بديهيات، ضروريات، بداية العقول، أوائل العلوم).[١]

وقال في موضع آخر: إن العارف بوجود المدركات ضرورة، ومعرفة الإنسان بنفسه ضرورة وبكثير من أحكامه وصفاته، وكذلك معرفته بمخبر أخبار التواتر ضرورة.

وقال: كما أن علم الإنسان بنفسه لما كان ضرورة لم يجز أن يدعوه داع إلى خلاف ذلك، ولم يجز أن ترد عليه الشبهة في وجوده حتى يعتقد أنه ليس بموجود.[٢]

وقال في معرفة الله أنها ليست ضرورية، إذا لو كانت ضرورية لكان الناس جميعا مضطرين إليها، لأن ضرورات المعرفة إذا لم تعلق بأسباب الحواس والأخبار فهي مشتركة بين العقلاء، ولو جاز لمدعي أن يدعي ذلك لجاز لمدعي أن يدعي أنهم مضطرون إلى العلم بالنبي ﷺ وبصدقه، وقد بين الله تعالى بطلان هذا القول بقوله ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ البقرة. أي لا يعلمون، وقال ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المنافقون. وأخبر عن بعض الكافرين فقال ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجاثية. وقال تعالى ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ المجادلة: ١٨. والعالم بالشيء لا يجوز أن يكون ظانا شاكا فيه مع علمه.[٣]

- **قول الإمام الأشعري في أن ضروريات العلم مشتركة بين ذوي الحواس:**

لا يصح أن ينفرد بعض الأفراد بدعوى في ضروريات العلم، وغيره لا يجده، فأن ضروريات العلم بين ذوي الحواس إذا انتفت الآفات، ولم تتباين الحواس فإذا تباينت فساغ الادعاء.

إن إجازة الخلاف في الضروريات تؤدي إلى إنكار الحقائق وإبطال الطرق إلى إثباتها.[٤]

- **قول الإمام الأشعري في حكم مَن أنكر الضروريات المحسوسة جملةً:**

إن من أنكر المحسوس جملة باللسان فأنه لا يستحق المناظرة لأجل أنها وضعت لتبين ما غاب عن الحس برده إلى المحسوس، ومن أنكر المحسوس فلا سبيل إلى مكالمته.[٥]

---

(١) مجرد مقالات الأشعري، ص١١.

(٢) مجرد مقالات الأشعري، ص ٢٥٧.

(٣) مجرد مقالات الأشعري، ص ٢٥٨.

(٤) مجرد مقالات الأشعري، ص ١٣.

(٥) مجرد مقالات الأشعري، ص١٢.

مما مضى يتبين بوضوح أن الإمام أبا الحسن الأشعري قد تناول نظرية المعرفة من حيث إمكانها وطبيعتها ومصادرها.

والحمد لله الذي به تتم الصالحات ...

* * *

الخاتمة

نظرية المعرفة تمثل المقياس العلمي لمراحل النضج الفكري الإنساني من حيث الطبيعة والمصدر والإمكان، والمسلمون أبدعوا في نظرية المعرفة من خلال فكرهم البشري المدعوم من الوحي المقدس، فاجتمع النوران فأنتجا معرفة إسلامية.

ومن أعلام الفكر الإسلامي إمام المتكلمين أبو الحسن الأشعري (رحمه الله) الذي اخترناه في دراستنا هذه، فتبين من خلال البحث:

١. أصالة الفكر عند الإمام الأشعري. وتبيَّن ذلك من خلال نصوصه المنقولة في نظرية المعرفة.

٢. نضوج نظرية المعرفة عند الإمام الأشعري مكنته من صياغة منهج جديد للفهم ثم التأصيل ثم الجدل والحجاج، لذا كان الإمام الأشعري علامة فارقة في زمانه ومتميزا في منهجه عن أقرانه.

٣. نضوج نظرية المعرفة عند الإمام الأشعري مكنته من مقارعة الفرق الفلسفية والكلامية كالمعتزلة والجهمية وغيرهم وقمعهم بالحجة والبرهان.

٤. نضوج نظرية المعرفة عند الإمام الأشعري مكنته من تزعم رئاسة علم الكلام السُني المنضبط بالكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- **التوصيات:**

١. نرغب الباحثين بدراسة نظرية المعرفة بعمق لأنها الكاشفة لمستوى المعارف والعلوم والعلماء.

٢. نوجه الباحثين لدراسة نظرية المعرفة الإسلامية وتبيين مميزاتها وبم انفردت عن معارف الأمم الأخرى.

٣. نحث الباحثين لدراسة أعلام الفكر الإسلامي على ضوء نظرية المعرفة.

* * *

المصادر

- القرآن العظيم.
١. تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ترجمة: محمود سيد أحمد. دار: التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠م
٢. تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار: القلم، بيروت.
٣. تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٣٦م.
٤. تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المحقق: بشار عواد، دار: الغرب الإسلامي - بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٥. تبيين كذب المفتري، علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دار: الكتاب العربي - بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٦. تمهيد للفلسفة، محمود حمدي زقزوق، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٦م.
٧. جون لوك مقدمة قصيرة جدا، تأليف: جون دَن، ترجمة: فايقة حنا، مؤسسة هنداوي، ط١، مصر، ٢٠١٦م.
٨. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م.
٩. طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن تقي الدين السُبكي، المحقق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار: هجر، ط٢، ١٤١٣هـ.
١٠. الفلسفة الحديثة، أمل مبروك، دار: التنوير، بيروت، ٢٠١١م.
١١. مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، محمد ابن فورك، تحقيق: أحمد السايح، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
١٢. مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها، عباس عطيتو، دار: المعرفة، ٢٠١٠م.
١٣. المدخل لدراسة نظرية المعرفة، غلام رضا الفياض، تعريب: أيوب الفاضلي، مركز السراج، ط١، ٢٠١٣م
١٤. معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، دار: الطليعة، بيروت، ط٣.
١٥. الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة، ط٢، ١٩٩٩م.
١٦. موسوعة لالاند الفلسفية، أندرية لالاند، تعريب: خليل أحمد، منشورات: عويدات، بيروت - فرنسا، ط٢، ٢٠٠١م.
١٧. ميزان العمل، الإمام العزالي محمد بن محمد، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار: المعارف، مصر،

ط١، ١٩٦٤م.

١٨. نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، مؤسسة هنداوي، بريطانية، ط١، ٢٠١٧م.

١٩. نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د. راجح عبد الحميد الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط١، ١٩٩٢م.

٢٠. نظرية المعرفة عند مفكري العرب وفلاسفة الغرب المعاصرين، محمود زيدان، دار: المتنبي، السعودية، ط١، ٢٠١٢م.

٢١. نقد المذاهب المعاصرة، إبراهيم مصطفى، دار: المعرفة الجامعية، ٢٠٠٨م.

* * *